



لا تزال أصوات إعلان الرئيس دونالد ترامب قراره سحب القوات الأمريكية من سوريا تتفاعل على أكثر من صعيد، ليس فقط بسبب ما أحدثه من حراك سياسي وعسكري جعل دول المنطقة والقوى المعنية بالأزمة السورية تبدل جهوداً إضافية لاستجلاء حقيقة النوايا الأمريكية، وفهم طبيعة التغيير الذي طرأ على الاستراتيجية الأمريكية بخصوص منطقة الشرق الأوسط عموماً وسوريا خصوصاً، وإنما بطرح فكرة تأسيس منطقة عازلة في الشمال السوري بعمق 20 ميلاً، تساهم في طمانة تركيا وتحقيق أمنها الاستراتيجي، وتفصل بينها وبين الميليشيات الانفصالية شريك الأميركي في الحرب على تنظيم داعش.

رغم الترحيب التركي بفكرة المنطقة العازلة فإن تفاصيل تطبيقها يبدو أكثر أهمية من أصل الفكرة نفسها، حيث يكمن الشيطان بين التفاصيل كما يقال. لكن حتى الأميركي أنفسهم ليس لديهم خطة واضحة ترضي جميع الأطراف أو أكثرهم على الأقل. إذ يبقى جواب السؤال الأكثر إلحاحاً، من سيملأ الفراغ الحاصل عن الانسحاب الأميركي، ويدبر هذه المنطقة عسكرياً، دون جواب شاف حالياً.

المراحل والمعطيات الرئيسية في التعاطي الأميركي مع الأزمة السورية

المرحلة الأولى: مرحلة دعم وتبني المعارضة السورية

في البداية أبدت الولايات المتحدة الأمريكية ترحيباً كبيراً بالربيع العربي، وسمته نهوضاً ويقطلة لشعوب المنطقة، التي سئمت الاستبداد وتأفت لاستنشاق نسائم الحرية. ولا يزال صدى كلمات المديح وعبارات الثناء على الربيع العربي من الرئيس الأميركي السابق باراك أوباما حاضراً في الأذهان، وخصوصاً وصفه الثورة المصرية بأنها "مصدر إلهام لشعوب العالم".

لكن الترحيب والدعم الأمريكي لم يدم طويلا، إذ سرعان ما تكسرت أمواله عند شاطئ الاتفاق النووي مع إيران، حيث أغمض أوبياما عينيه وصم أذنيه، وأصبح لا يرى منطقة الشرق الأوسط إلا من ثقب العلاقة مع إيران وملفها النووي.

المرحلة الثانية: التخلي عن المعارضة السورية لحساب الاتفاق النووي مع إيران

عقب الإنجاز الكبير الذي حققه أوبياما بالوصول إلى الاتفاق مع إيران بخصوص ملفها النووي، وانصراف الأخيرة كلياً إلى منع نظام بشار الأسد من السقوط، بدأت الإبرة الأمريكية تمييز نحو نفس اليد من المعارضة السورية والتخلص عنها. بل وصل الأمر بأوباما إلى درجة التخلص عن خطوطه الحمراء التي أعلنها بنفسه، بالسکوت عن استخدام الأسد للسلاح الكيماوي ضد المدنيين في الغوطة وغيرها، معرضاً هيبة الامبراطورية الأمريكية وسمعتها لاهتزاز الثقة والمصداقية، بالرضاخ لدكتاتور صغير.

الاستدارة الأمريكية في هذه المرحلة بلغت أوجها عندما وصف أوبياما قيادة المعارضة السورية بأنهم فلاحون أغار، لا يفقهون شيئاً بأمور السياسة وإدارة البلاد.

المرحلة الثالثة: تسليم الملف العسكري في سوريا للروس

توقع كثيرون أن يجري الرئيس الصقوري "الجمهوري" الجديد ترامب تغييرات جذرية على سياسة بلاده بخصوص الأزمة السورية. وقد عضد هذه القناعة الضربات العسكرية الثلاثية التي وجهتها الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا، ل الواقع للنظام السوري، رداً على هجوم كيماوي استهدف مدينة دوما، بغوطة دمشق الشرقية. لكن سرعان ما تبين أن هذه الضربة كانت استعراضية، وأن ترامب يسير على خطى أوبياما شبراً بشبر.

لم يكتف ترامب باتباع نهج سلفه أوبياما، بل أعطى الضوء الأخضر للروس للتدخل عسكرياً في سوريا، وفوضهم بإدارة الصراع ضمن أساس لا تُهيمن الولايات المتحدة، وتأخذ في الحسبان أمن "إسرائيل"، وتضمن بقاء توازن القوى لحين إنجاج حل سياسي يلائم الأطراف الدولية والإقليمية.

بالتعبير الأدق، دفع الأميركيان الروس إلى الساحة السورية من أجل تنفيذ ما يسمى بـ"المهمة القدرة" التي تعني البطش بالجميع، وإنها حالة الاشتباك العنيف، تمهدًا للبدء بالعملية السياسية، لكن ليس إلى درجة الجسم العسكري التام وإعلان النصر كما كان يشتهي بوتين، فقد تم إيقاف زحفه على إدلب آخر معقل للمعارضة، فاضطر للتوقيع على اتفاق سوتشي.

المرحلة الرابعة: العودة إلى الملف السوري مجدداً من خلال العملية السياسية

بعد استخدامهم الفيتو ضد الجسم العسكري في إدلب، ذهب الأميركي لجهة التقارب مع أنقرة بهدف تهيئة الأجواء للعودة لمسار العملية السياسية.

يُزعم الأميركيان أن موسكو فشلت في سوريا لأنها تماطلت في ترجيح كفة النظام السوري على حساب المعارضة التي مارست ضدها حرباً ضروسًا بدأتها في حلب وما زالت مستمرة فيها حتى الآن، ورهانها على الأسد ونظامه. ثم الغرور الذي أصاب الرئيس بوتين وجعله مفتوعاً بأن الأمر الناهي في الشرق الأوسط. والعامل الثالث، هو اعتماد موسكو على طهران بشكل رئيسي، وعدم رغبتها في تحجيم الدور الإيراني إلى المستوى الذي تريده الولايات المتحدة.

رسالة مزدوجة وجهتها واشنطن إلى موسكو: أولاً، أن سقف النفوذ الروسي محدود في سوريا وليس مطلقاً، وأن على روسيا العودة إلى قواعد اللعبة وأصولها بين الكبار. وثانياً، أن لا حل في سوريا إلا عبر المسار التفاوضي في جنيف، أي وفق

المعايير الأممية التي رسمها مجلس الأمن الدولي في بيان جنيف¹ وفي القرار الأممي 2254، وأن سلسلة اجتماعات "أستانا" ومؤتمر "سوتشي" ليسا الحل، وكل ما يصدر عنهم هو هامش مهم حاولت روسيا التشبث بهما.

المرحلة الخامسة: إعلان واشنطن عن استراتيجيةها في سوريا

بعد ضغوط شديدة من الكونجرس، أعلنت إدارة الرئيس ترامب خطتها الاستراتيجية حول سوريا. اعتمدت الاستراتيجية الأمريكية الجديدة في سوريا التي تقوم على محاربة الإرهاب (داعش)، وتحجيم الدور الإيراني، والبدء بالعملية السياسية.

في 14 كانون الثاني/ يناير 2018، أعلنت واشنطن عزمها على تشكيل قوة عسكرية في سوريا قوامها 30 ألف مقاتل، من ميليشيات (قوات سوريا الديمقراطية - قسد)، لتنشر على طول الشريط الحدودي مع تركيا شمالاً، وعلى الحدود العراقية إلى الجهة الشرقية الجنوبية وبموازاة نهر الفرات. لكن واشنطن اضطرت أمام ضغوط أنقرة إلى التراجع عن فكرة تشكيل القوة العسكرية في الشمال السوري.

بعد ثلاثة أيام فقط، وتحديداً في 17 كانون الثاني/ يناير 2018، أدى وزير الخارجية الأميركي تيلرسون بتصريح، جاء في منزلة إعلان واضح و مباشر للاستراتيجية الأمريكية فيما يخص سوريا والمنطقة خلال المرحلة المقبلة.

قال تيلرسون إن القوات الأمريكية ستبقى في سوريا لمواجهة (داعش) ونظام الأسد وإيران، واعتبر ذلك "مصلحة وطنية". وتعهد هذه أول مرة تُصرّح فيها واشنطن بأن هناك مصالح أميركية كبيرة في سوريا وأنها مستعدة للدفاع عنها.

المرحلة السادسة: إعلان الرئيس ترامب الانسحاب من سوريا

استراتيجية التوازنات التي انتهجتها تركيا في علاقاتها الخارجية آتت ثمارها، فقد بدأت واشنطن تنظر إلى العلاقات التركية- الروسية بمنظور الخشية العالمية، لأن هذه العلاقة بدأت تتجاوز حدود التعاون والتنسيق التكتيكي، إلى مستوى التحالف الاستراتيجي، وهذا يتعارض استراتيجيتها الكونية الجديدة. لذلك عمدت إلى تهدئة مخاوف أنقرة، فأعطت الضوء الأخضر لعملية غصن الزيتون ليتم تحرير عفرين من ميليشيات بي كا/ي بـ ج الإرهابية الانفصالية، ثم أتبعتها بفيتو ضد العملية العسكرية التي كان الروس والإيرانيون والنظام ينوي شنها لإنهاء الوجود العسكري للمعارضة السورية في إدلب، مما أفسح المجال أمام أنقرة لترتيب اتفاق سوتشي مع موسكو.

كما أن إعلان ترامب الانسحاب من سوريا كان بمثابة رفع الغطاء عن ميليشيات بي كا/ي بـ ج، وتركها وجهاً لوجه أمام تركيا، فإن إعلانه عن المنطقة الآمنة هو بمثابة طلقة الرحمة على مشروع إنشاء كيان انفصالي في شمال سوريا.

أما تهديد ترامب بحرب اقتصادية مدمرة ضد تركيا، فهو حفظ لماء الوجه أمام الرأي العام من جهة، وإعلان عن تجنيد السلاح والمنطق العسكري في التعامل مع الأزمة، وهي رسالة على قدر كبير من الأهمية.

الكاتب بيرجان توتار كتب في جريدة صباح: "يعتقد ترامب أن الولايات المتحدة غرقت في حروب هامشية منذ 11 سبتمبر 2001 أهدرت فيها القوة والمال والاعتبار، عوضاً عن منافسة خصميها الرئيسين روسيا والصين، ولهذا فإن ترامب يعلن من خلال قراره الانسحاب من سوريا أن الحرب على الإرهاب انتهت. لكنه عملياً وبمجرد مجئه للسلطة، قام بسحب "سي أي إيه" من سوريا في يونيو 2017، والآن يسحب البنتاغون أيضاً.." بعد دراسة كل الاحتمالات، لم يتخل ترامب عن "بي بـ ج" مطية البنتاغون فحسب، بل إنه بدأ يدبر ظهره للسعودية وإسرائيل. أمريكا بوش وأوباما تعرضت لهزيمة استراتيجية تاريخية على يد تركيا، مهما اعترض المعترضون. وترامب هو أفضل من لاحظ هذه الحقيقة".

نحوت الدبلوماسية التركية في إقناع الرئيس الأمريكي ترامب بأن التعامل مع ميليشيات إرهابية خطأ استراتيجي فادح، وأن تركيا الحديثة ليست مثل تركيا القديمة. تركيا الحديثة والقوة الإقليمية الصاعدة، التي تنتج 80% من سلاحها، أصبحت رقماً صعباً لا يمكن تجاهله أو تخطيه في منطقة يتم رسم خارطتها الجيوسياسية من جديد.

المصادر:

الأناضول